

عوامل الصبر والثبات

وهنا يقف الحليم حيران ، ويتساءل عقلاء الرجال فيما بينهم : ما هي الأسباب والعوامل التي بلغت بالمسلمين إلى هذه الغاية القصوى ، والحد المعجز من الثبات ؟ كيف صبروا على هذه الاضطهادات التي تقشع لسماعها الجلود ، وترجف لها الأفئدة ؟ ونظراً إلى هذا الذي يتخالج القلوب ، نرى أن نشير إلى بعض هذه العوامل والأسباب إشارة عابرة بسيطة :

١ - إن السبب الرئيسي في ذلك أولاً وبالذات هو الإيمان بالله وحده ومعرفته حق انعرفة ، فالإيمان الجازم إذا خالطت بشاشته القلوب يزن الجبال ولا يطيش ، وإن صاحب هذا الإيمان المحكم وهذا اليقين الجازم يرى متاعب الدنيا مهما كثرت وكبرت وتفاقت واشتدت - يراها في جنب إيمانه - طحالب عائمة فوق سيل جارف جاء ليكسر السدود المنيعه والقلاع الحصينة ، فلا يبالي بشيء من تلك المتاعب ، أمام ما يجده من حلاوة إيمانه وطرارة إذعانه وبشاشة يقينه ﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ﴾ [١٣ : ١٧] .

ويتفرع من هذا السبب الوحيد أسباب أخرى تقوي هذا الثبات والمصابرة وهي :

٢ - قيادة تهوي إليها الأفئدة ، فقد كان النبي ﷺ - وهو القائد الأعلى للأمة الإسلامية بل وللبشرية جمعاء - يتمتع من جمال الخلق وكمال النفس ، ومكارم الأخلاق ، والشيم النبيلة والشاغل الكريمة ، بما تتجاذب إليه القلوب ، وتتفانى دونه النفوس ، وكانت أنصته من الكمال الذي يعشق لم يرزق بمثلها بشر ، وكان على أعلى قمة من الشرف والنبيل والخير والفضل ، وكان من العفة والأمانة والصدق ، ومن جميع سبل الخير على ما لم يتجار ولم يشك فيه أعداؤه فضلاً عن محبيه ورفقائه ، لا تصدر منه كلمة إلا ويستيقنون صدقها .

اجتمع ثلاثة نفر من قريش ، كان قد استمع كل واحد منهم إلى القرآن سرّاً عن صاحبيه ثم انكشف سرهم ، فسأل أحدهم أبا جهل - وكان من أولئك الثلاثة - ما رأيك

فما سمعت من محمد؟ فقال: ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الركب، وكنا كفرسي رهان، قالوا: لنا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه^(١).

وكان أبو جهل يقول: يا محمد إنا لا نكذبك ولكن نكذب بما جئت به، فأنزل الله: ﴿فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾^(٢).

وغمزه الكفار يوماً ثلاث مرات، فقال في الثالثة: يا معشر قريش، جئتمكم بالذبح، فأخذتهم تلك الكلمة، حتى إن أشدهم عداوة يرفؤه بأحسن ما يجد عنده.

ولما ألقوا عليه سلا جذور وهو ساجد دعا عليهم، فذهب عنهم الضحك، وساورهم الهم والقلق، وأيقنوا أنهم هالكون.

ودعا على عتبية بن أبي هب فلم يزل على يقين من لقاء ما دعا به عليه، حتى إنه حين رأى الأسد قال: قتلني والله - محمد - وهو بمكة.

وكان أبي بن خلف يتوعده بالقتل. فقال: بل أنا أقتلك إن شاء الله، فلما طعن أبا في عنقه يوم أحد - وكان خدشا غير كبير - كان أبي يقول: إنه قد كان قال لي بمكة: أنا أقتلك. فوالله لو بصق علي لقتلني^(٣) - وسيأتي.

وقال سعد بن معاذ - وهو بمكة - لأمية بن خلف: لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنهم - أي المسلمين - قاتلوك، ففزع فزعاً شديداً، وعهد أن لا يخرج عن مكة، ولما أجهأ أبو جهل للخروج يوم بدر اشترى أجود بعير بمكة ليتمكنه من الفرار، وقالت له امرأته: يا أبا صفوان، وقد نسيت ما قال لك أخوك اليثري؟ قال: لا والله ما أريد أن أجوز معهم إلا قريباً^(٤).

هكذا كان حال أعدائه ﷺ، أما أصحابه ورفقاؤه فقد حل منهم محل الروح والنفس: وشغل منهم مكان القلب والعين، فكان الحب الصادق يندفع إليه اندفاع الماء إلى الحدور، وكانت النفوس تنحذب إليه الجذاب الحديد إلى المغناطيس.

فصورته هوى كل جسم ومغناطيس أفئدة الرجال

(٣) ابن هشام ٨٤/٢.

(٤) النظر صحيح البخاري ٥٦٣/٢.

(١) ابن هشام ٣١٦/١.

(٢) رواه الترمذي في تفسير سورة الأنعام ١٣٢/٢.

وكان من أثر هذا الحب والتفاني أنهم كانوا ليرضون أن تندق أعناقهم ولا يمدح له ظفر أو يشاك شوكة .

وطيء أبو بكر بن أبي قحافة يوماً بمكة، وضرب ضرباً شديداً، دنا منه عتبة بن ربيعة، فجعل يضربه بنعلين مخصوفين، ويحرفها لوجهه، ونزا على بطن أبي بكر، حتى ما يعرف وجهه من أنفه، وحملت بنو تميم أبا بكر في ثوب، حتى أدخلوه منزله، ولا يشكون في موته، فتكلم آخر النهار فقال: ما فعل رسول الله ﷺ، فمسوا منه بالسنتهم وعذلوله، ثم قاموا وقالوا لأمه أم الخير: انظري أن تطعميه شيئاً أو تسقيه إياه، فلما خلت به أخت عليه، وجعل يقول: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فقالت: والله لا علم لي بصاحبك، فقال: اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه، فخرجت حتى جاءت أم جميل، فقالت: إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله، قالت: ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله، وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك ذهبت، قالت: نعم فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعاً دنفاً، فدنت أم جميل، وأعلنت بالصياح، وقالت: والله إن قوماً نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر، وإني لأرجو أن ينتقم الله لك منهم، قال: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالت: هذه أمك تسمع، قال: فلا شيء عليك منها، قالت: سالم صالح، فقال: أين هو؟ قالت: في دار ابن الأرقم قال: فإن لله علي أن لا أذوق طعاماً ولا أشرب شراباً أو آتي رسول الله ﷺ، فأمهلتا، حتى إذا هدأت الرجل، وسكن الناس، خرجتا به، يتكئ عليهما، حتى أدخلتاها على رسول الله ﷺ (١).

وستنقل نوادر الحب والتفاني في مواقع شتى من هذه المقالة، ولا سيما ما وقع في يوم أحد، وما وقع من خبيب وأمثاله .

٣ - الشعور بالمسؤولية - فكان الصحابة يشعرون شعوراً تاماً ما على كواهل البشر من المسؤولية الفخمة الضخمة، وأن هذه المسؤولية لا يمكن عنها الحياد والانحراف بحال، فالعواقب التي تترتب على الفرار عن تحملها أشد وخامة وأكبر ضرراً عما هم فيه من الاضطهاد، وأن الخسارة التي تلحقهم - وتلحق البشر جمعاء - بعد هذا الفرار لا يقاس بحال على المتاعب التي كانوا يواجهونها نتيجة هذا التحمل .

٤ - الإيمان بالآخرة - وهو مما كان يقوي هذا الشعور - الشعور بالمسؤولية - فقد كانوا على يقين جازم من أنهم يقومون لرب العالمين، يحاسبون بأعمالهم دقها وجلها،

(١) البداية والنهاية ٣/٣٠.

صغيرها وكبيرها، فإما إلى النعيم المقيم، وإما إلى عذاب خالد في سواء الجحيم، فكانوا يقضون حياتهم بين الخوف والرجاء، يرجون رحمة ربهم ويخافون عذابه، وكانوا: ﴿يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون﴾ وكانوا يعرفون أن الدنيا بعذابها ونعيمها لا تساوي جناح بعوضة في جنب الآخرة، وكانت هذه المعرفة القوية تهون لهم متاعب الدنيا ومشاقها ومرارتها، حتى لم يكونوا يكثرثون لها ويلقون إليها بالآ.

٥ - القرآن - وفي هذه الفترة العصبية الرهيبة الحالكة كانت تنزل السور والآيات تقم الحجج والبراهين على مبادئ الإسلام - التي كانت الدعوة تدور حولها - بأساليب منيعة خلاية، وترشد المسلمين إلى أسس قدر الله أن يتكون عليها أعظم وأروع مجتمع بشري في العالم - وهو المجتمع الإسلامي - وتثير مشاعر المسلمين ونوازعهم على الصبر والتجلد، تضرب لذلك الأمثال، وتبين لهم ما فيه من الحكم: ﴿أم حسبكم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب﴾ [٢: ٢١٤] ﴿الم. أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون. ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾ [٢٩: ١، ٢، ٣].

كما كانت تلك الآيات ترد على إرادات الكفار والمعاندين رداً مفحماً، ولا تبقي لهم حيلة، ثم تحذرهم مرة عن عواقب وخيمة - إن أصروا على غيهم وعنادهم - في جلاء ووضوح، مستدلاً بأيام الله، والشواهد التاريخية التي تدل على سنة الله في أوليائه وأعدائه، وتلطفهم مرة، وتؤدي حق التفهيم والإرشاد والتوجيه، حتى ينصرفوا عما هم فيه من الضلال المين.

وكان القرآن يسير بالمسلمين في عالم آخر، ويبصرهم من مشاهد الكون، وجمال الربوبية، وكمال الألوهية، وآثار الرحمة والرفقة، وتجليات الرضوان ما يمنون إليه حينياً لا يقوم له أي عقبة.

وكانت في طي هذه الآيات خطابات للمسلمين، فيها يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم، وتصور لهم صورة أعدائهم من الكفرة الطغاة الظالمين، يحاكمون، ويصادرون، ثم يسحبون في النار على وجوههم، ذوقوا مس سقر.

٦ - البشارات بالنجاح - ومع هذا كله كان المسلمون يعرفون منذ أول يوم لاقوا فيه الشدة والاضطهاد - بل ومن قبله - أن الدخول في الإسلام ليس معناه جر المصائب

والختوف. بل إن الدعوة الإسلامية تهدف - منذ أول يومها - إلى القضاء على الجاهلية الجهلاء ونظامها الغاشم، وأن من أهدافها الأساسية بسط النفوذ على الأرض والسيطرة على الموقف السياسي في العالم، لتقود الأمة الإنسانية والجمعية البشرية إلى مرضاة الله. وتخرجهم من عبادة العباد إلى عبادة الله.

وكان القرآن ينزل بهذه البشارات - مرة بالتصريح وأخرى بالكناية - ففي تلك الفترات القاصمة التي ضيقت الأرض على المسلمين، وكادت تخنقهم، وتقضي على حياتهم، كانت تنزل الآيات بما جرى بين الأنبياء السابقين وبين أقوامهم الذين قاموا بتكذيبهم والكفر بهم، وكانت تشتمل هذه الآيات على ذكر الأحوال التي تطابق تماماً أحوال مسلمي مكة وكفارها، ثم تذكر هذه الآيات بما تمخضت عنه تلك الأحوال من إهلاك الكفرة والظالمين، وإيراث عباد الله الأرض والديار. فكانت في هذه القصص إشارات واضحة إلى فشل أهل مكة في المستقبل، ونجاح المسلمين مع نجاح الدعوة الإسلامية.

وفي هذه الفترات نزلت آيات تصرح ببشارة غلبة المؤمنين قال تعالى: ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين. إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون، فتول عنهم حتى حين وأبصرهم فسوف يبيرون أفبعذابنا يستعجلون فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين ﴾ [٣٧، ١٧١ - ١٧٧] وقال: ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ [٥٤ : ٤٥] وقال: ﴿ جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب ﴾ [٣٨ : ١١] ونزلت في الذين هاجروا إلى الحبشة: ﴿ والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوئهم في الدنيا حسنة، ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾ [١٦ : ٤١] وسألوه عن قصة يوسف فأنزل الله في طيها. ﴿ لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين ﴾ [١٢ : ٧] أي فأهل مكة السائلون يلاقون ما لاقى إخوانه من الفشل، ويستسلمون كاستسلامهم، وقال وهو يذكر الرسل: ﴿ وقال الذين كفروا لرسولهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين، ولنسكننكم الأرض من بعدهم، ذلك لمن خاف عقامي وخاف وعيد ﴾ [١٤ : ١٣، ١٤] وحينما كانت الحرب مشتعلة بين الفرس والرومان، وكان الكفار يحبون غلبة الفرس بصفقتهم مشركين، والمسلمون يحبون غلبة الرومان بصفقتهم مؤمنين بالله والرسل والوحي والكتب واليوم الآخر وكانت الغلبة للفرس، أنزل الله بشارة غلبة الروم في بضع سنين. ولكنه لم يقتصر على هذه البشارة

الواحدة، بل صرح ببشارة أخرى وهي نصر الله للمؤمنين حيث قال: ﴿ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله﴾ [٣٠: ٤، ٥].

وكان رسول الله ﷺ نفسه يقوم بمثل هذه البشارات بين آونة وأخرى، فكان إذا وافى الموسم، وقام بين الناس في عكاظ ومجنة وذئ المجاز، لتبليغ الرسالة، لم يكن يبشرهم بالجنة فحسب، بل يقول لهم بكل صراحة، يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا، وتملكوا بها العرب، وتدين لكم بها العجم، فإذا متم كنتم ملوكاً في الجنة^(١).

وقد أسلفنا ما أجاب به النبي ﷺ عتبة بن ربيعة حين أراد مساومته على رغائب الدنيا، وما فهمه ورجاه عتبة من ظهور أمره عليه الصلاة والسلام.

وكذلك ما أجاب به النبي ﷺ آخر وفد جاء إلى أبي طالب، فقد صرح لهم أنه يطلب منهم كلمة واحدة يعطونها، تدين لهم العرب، ويملكون العجم.

قال خباب بن الأرت: أتيت النبي ﷺ وهو متوسد برده، وهو في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة، فقلت: ألا تدعو الله، فقعد، وهو محمر وجهه، فقال: لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم وعصب ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله - زاد بيان الراوي - والذئب على غنمه^(٢) وفي رواية ولكنكم تستعجلون^(٣).

ولم تكن هذه البشارات مخفية مستورة، بل كانت فاشية مكشوفة، يعلمها الكفرة، كما كان يعلمها المسلمون، حتى كان الأسود بن المطلب وجلساؤه إذا رأوا أصحاب النبي ﷺ تغامزوا بهم، وقالوا: قد جاءكم ملوك الأرض، سيفلبون على ملوك كسرى وقيصر، ثم يصفرون ويصفقون^(٤).

وأمام هذه البشارات بالمتسقبل المجيد المستنير في الدنيا، مع ما فيه من الرجاء الصالح الكبير البالغ إلى النهاية في الفوز بالجنة، كان الصحابة يرون أن الاضطهادات التي تتوالى عليهم من كل جانب، والمصائب التي تحيط بهم من كل الأرجاء، ليست إلا: «سحابة صيف عن قليل تقشع».

(٣) نفس المصدر ١/٥١٠.

(٤) فقه السيرة ص ٨٤.

(١) رواه الترمذي وقد مضى مراراً.

(٢) صحيح البخاري ١/٥٤٣.

هذا ولم يزل الرسول ﷺ يغذي أرواحهم برغائب الإيمان، ويزكي نفوسهم بتعليم الحكمة والقرآن، ويربيهم تربية دقيقة عميقة، يحدو بنفوسهم إلى منازل سمو الروح، وتقوى القلب، ونظافة الخلق، والتحرر من سلطان الماديات، والمقاومة للشهوات، والنزوع إلى رب الأرض والسموات، ويزكي جرة قلوبهم، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ويأخذهم بالصبر على الأذى والصفح الجميل وقهر النفس، فزادوا رسوخاً في الدين، وعزوفاً عن الشهوات، وتفانياً في سبيل المرضاة، وحنيناً إلى الجنة، وحرصاً على العلم، وفقهاً في الدين، ومحاسبة للنفس وقهراً للنزعات، وغلبة على العواطف، وتسيطراً على التأثيرات والمهائجات، وتقيداً بالصبر والهدوء والوقار.

المرحلة الثالثة دعوة الإسلام خارج مكة

الرسول ﷺ في الطائف:

في شوال^(١) سنة عشر من النبوة (في أواخر مايو أو أوائل يونيو سنة ٦١٩ م) خرج النبي ﷺ إلى الطائف، وهي تبعد عن مكة نحو ستين ميلاً، سارها ماشياً على قدميه جيئة وذهوباً، ومعه مولاه زيد بن حارثة، وكان كلما مر على قبيلة في الطريق دعاهم إلى الإسلام، فلم تجب إليه واحدة منها. فلما انتهى إلى الطائف عمد ثلاثة إخوة من رؤساء ثقيف، وهم عبد ياليل ومسعود وحبيب أبناء عمرو بن عمير الثقفي، فجلس إليهم ودعاهم إلى الله، وإلى نصرته الإسلام، فقال أحدهم: هو يمرط ثياب الكعبة (أي يمزقها)، إن كان الله أرسلك، وقال الآخر: أما وجد الله أحداً غيرك، وقال الثالث: والله لا أكلمك أبداً، إن كنت رسولاً لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي أن أكلمك. فقام عنهم رسول الله ﷺ، وقال لهم: إذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني.

وأقام رسول الله ﷺ بين أهل الطائف عشرة أيام، لا يدع أحداً من أشرافهم إلا جاءه وكلمة، فقالوا: أخرج من بلادنا، وأغروا به سفهاءهم، فلما أراد الخروج تبعه سفهاؤهم وعبيدهم، يسبونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس، فوقفوا له ساطين (أي صفين) وجعلوا يرمونه بالحجارة وبكلمات من السفه، ورجوا عراقبيه، حتى اختضب نعلاه بالدماء. وكان زيد بن حارثة يقيه بنفسه، حتى أصابه شجاج في رأسه، ولم يزل به السفهاء كذلك حتى ألجأوه إلى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة، على ثلاثة أميال من الطائف، فلما التجأ إليه رجعوا عنه، وأتى رسول الله ﷺ إلى حبله من عنب، فجلس تحت ظلها إلى جدار فلما جلس إليه واطمأن، دعا بالدعاء المشهور الذي يدل على امتلاء قلبه كآبة وحزناً مما لقي من الشدة، وأسفا على أنه لم يؤمن به أحد، قال:

(١) صرح بذلك النجيب آبادي في تاريخ إسلام ١٢٢/١، وهو الراجح عندي.

(اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك).

فلما رآه ابنا ربيعة تحركت له رحمها، فدعوا غلاماً لها نصرانياً، يقال له عداس، وقالوا له: خذ قطفاً من هذا العنب واذهب به إلى هذا الرجل. فلما وضعه بين يدي رسول الله ﷺ مد يده إليه قائلاً: «باسم الله»، ثم أكل.

فقال عداس: إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال له رسول الله ﷺ: من أي البلاد أنت؟ وما دينك؟ قال: أنا نصراني، من أهل «نينوى». فقال رسول الله ﷺ من قرية الرجل الصالح يونس بن متى. قال له: وما يدريك ما يونس بن متى؟ قال رسول الله ﷺ: ذاك أخي، كان نبياً وأنا نبي، فأكب عداس على رأس رسول الله ﷺ ويديه ورجليه يقبلها.

فقال ابنا ربيعة أحدهما للآخر: أما غلامك فقد أفسده عليك. فلما جاء عداس قال له: ويحك ما هذا؟ قال: يا سيدي، ما في الأرض شيء خير من هذا الرجل، لقد أخبرني بأمر لا يعلمه إلا نبي، قالوا له: ويحك يا عداس، لا يصرفك عن دينك، فإن دينك خير من دينه.

ورجع رسول الله ﷺ في طريق مكة بعد خروجه من الحائط كثيراً محزوناً كسير القلب، فلما بلغ قرن المنازل بعث الله إليه جبريل ومعه ملك الجبال، يستأمره أن يطبق الأخشبين على أهل مكة.

وقد روى البخاري تفصيل القصة - بسنده - عن عروة بن الزبير. أن عائشة رضي الله عنها حدثته أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد؟ قال: لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبي إلى ما أردت، فانطلقت - أنا مهموم - على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب - وهو المسمى بقرن

المنازل - فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني، فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك. وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. فناداني ملك الجبال، فسلم عليّ، ثم قال: يا محمد، ذلك، فما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين - أي لفعلت، والأخشبان: هما جبلا مكة، أبو قبيس والذي يقابله وهو قعيقعان -، قال النبي ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله عز وجل من أصلابهم من يعبد الله عز وجل وحده لا يشرك به شيئاً^(١).

وفي هذا الجواب الذي أدلى به الرسول ﷺ تتجلى شخصيته الفذة، وما كان عليه من الخلق العظيم الذي لا يدرك غوره.

وأفاق رسول الله ﷺ، واطمأن قلبه؛ لأجل هذا النصر الغيبي الذي أمده الله عليه من فوق سبع سماوات، ثم تقدم في طريق مكة حتى بلغ وادي نخلة، وأقام فيه أياماً. وفي وادي نخلة موضعان يصلحان للإقامة - السيل الكبير والزيمة - لما بهما من الماء والخصب، ولم نقف على مصدر يعين موضع إقامته ﷺ فيه.

وخلال إقامته هناك بعث الله إليه نفرأ من الجن، ذكرهم الله في موضعين من القرآن، في سورة الأحقاف: ﴿وإذ صرفنا إليك نفرأ من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا: أنصتوا، فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين. قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم. يا قومنا أجيئوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويحرم من عذاب أليم﴾ [٤٦: ٢٩، ٣٠، ٣١].

وفي سورة الجن: ﴿قل أوحى إليّ أنه استمع نفر من الجن فقالوا: إنا سمعنا قرآنا عجيباً. يهدي إلى الرشد فأمننا به، ولن نشرك بربنا أحداً﴾ إلى تمام الآية الخامسة عشرة.

ومن سياق هذه الآيات - وكذا من سياق الروايات التي وردت في تفسير هذا الحادث - يتبين أن النبي ﷺ لم يعرف بحضور ذلك النفر من الجن، وإنما علم ذلك حين أطلعه الله عليه بهذه الآيات، وأن حضورهم هذا كان لأول مرة، ويتقضي سياق الروايات أنهم وفدوا بعد ذلك مراراً.

(١) صحيح البخاري. كتاب بدء الخلق ١/٤٥٨، مسلم. باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين

وحقاً كان هذا الحادث نصراً آخر أمدّه الله من كنوز غيبه المكنون بجنوده التي لا يعلمها إلا هو، ثم إن الآيات التي نزلت بصدد هذا الحادث كانت في طيها بشارات بنجاح دعوة النبي ﷺ، وأن أي قوة من قوات الكون لا تستطيع أن تحول بينها وبين نجاحها: ﴿ومن لا يحب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء، أولئك في ضلال مبين﴾ [٤٦: ٣٢] ﴿وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هرباً﴾ [٧٢: ١٢].

أمام هذه النصرة، وأمام هذه البشارات، أقشعت سحابة الكآبة والحزن واليأس، التي كانت مطبقة عليه منذ أن خرج من الطائف مطروداً مدحوراً، حتى صمم على العود إلى مكة، وعلى القيام باستئناف خطته الأولى في عرض الإسلام وإبلاغ رسالة الله الخالدة بنشاط جديد وجد وحاس.

وحينئذ قال له زيد بن حارثة: كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك؟ يعني قريشاً، فقال: يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجاً ومخرجاً، وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه. وسار رسول الله ﷺ حتى إذا دنا من مكة مكث بجرا، وبعث رجلاً من خزاعة إلى الأخنس بن شريق ليجيره، فقال: أنا حليف، والحليف لا يجير. فبعث إلى سهيل بن عمرو، فقال سهيل: إن بني عارم لا تجير على بني كعب، فبعث إلى المطعم بن عدي، فقال المطعم: نعم، ثم تسلح ودعا بنيه وقومه فقال: البسوا السلاح، وكونوا عند أركان البيت، فإني قد أجرت محمداً، ثم بعث إلى رسول الله ﷺ: أن ادخل، فدخل رسول الله ﷺ ومعه زيد بن حارثة حتى انتهى إلى المسجد الحرام، فقام المطعم بن عدي على راحلته فنادى يا معشر قريش، إني قد أجرت محمداً فلا يهجه أحد منكم، وانتهى رسول الله ﷺ إلى الركن فاستلمه، وصلى ركعتين، وانصرف إلى بيته، ومطعم بن عدي وولده محدقون به بالسلاح حتى دخل بيته.

وقيل: إن أبا جهل سأل مطعماً: أيجر أنت أم متابع - مسلم -؟ قال: بل مجير. قال: قد أجرنا من أجرت (١).

وقد حفظ رسول الله ﷺ للمطعم هذا الصنيع، فقال في أسارى بدر: لو كان المطعم بن عدي حياً ثم كلمني في هؤلاء النتنى لتركتهن له (٢).

(١) التقطنا تفصيل حادث الطائف من ابن هشام ٤١٩/١، ٤٢٠، ٤٢١، ٤٢٢، وزاد المعاد ٤٦/٢، ٤٧، ومختصر سيرة الرسول للشيخ عبدالله النجدي ص ١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ورحمة للعالمين ٧١/١، ٧٢، ٧٣، ٧٤، وتاريخ إسلام للنقيب آبادي ١٢٣/١، ١٢٤.

(٢) صحيح البخاري ٥٧٣/٢.

عرض الإسلام على القبائل والأفراد

في ذي القعدة سنة عشر من النبوة - في أواخر يونيو أو أوائل يوليو سنة ٦١٩ م - عاد رسول الله ﷺ إلى مكة؛ ليستأنف عرض الإسلام على القبائل والأفراد، ولإقتراب الموسم كان الناس يأتون إلى مكة رجالاً، وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق، ل قضاء فريضة الحج، وليشهدوا منافع لهم، ويذكروا الله في أيام معلومات، فانتهاز رسول الله ﷺ هذه الفرصة، فأتاهم قبيلة قبيلة يعرض عليهم الإسلام، ويدعوهم إليه، كما كان يدعوهم منذ السنة الرابعة من النبوة...

القبائل التي عرض عليها الإسلام:

قال الزهري: وكان ممن يسمى لنا من القبائل الذين أتاهم رسول الله ﷺ، ودعاهم وعرض نفسه عليهم بنو عامر بن صعصعة، ومحارب بن خصفة، وفزارة، وغسان، ومرة، وخنيفة، وسليم، وعبس، وبنو نصر، وبنو البكاء، وكندة، وكنب، والحارث بن كعب، وعذرة، والحضارمة، فلم يستجب منهم أحد^(١).

وهذه القبائل التي سماها الزهري لم يكن عرض الإسلام عليها في سنة واحدة، ولا في موسم واحد، بل إنما كان ما بين السنة الرابعة من النبوة إلى آخر موسم قبل الهجرة. ولا يمكن تسمية سنة معينة لعرض الإسلام على قبيلة معينة، نعم هناك قبائل قد جزم العلامة المنصور فوري أن عرض الإسلام عليهم كان في موسم السنة العاشرة^(٢). وقد ذكر ابن إسحاق كيفية العرض وردودهم، وهاك ملخصاً:

١ - بنو كلب - أتى النبي ﷺ إلى بطن منهم، يقال لهم بنو عبدالله، فدعاهم إلى الله، وعرض عليهم نفسه، حتى إنه ليقول لهم: يا بني عبدالله، إن الله قد أحسن اسم أبيكم، فلم يقبلوا منه ما عرض عليهم.

(١) روى ذلك الترمذي، انظر مختصر سيرة الرسول للشيخ عبدالله النجدي ص ١٤٩.

(٢) رحمة للعالمين ٧٤/١، وبه جزم النجيب آبادي. انظر تاريخ إسلام ١٢٥/١.

٢ - بنو حنيفة - أتاهم في منازلهم فدعاهم إلى الله، وعرض عليهم نفسه، فلم يكن أحد من العرب أقبح عليه رداً منهم.

٣ - وأتى إلى بني عامر بن صعصعة، فدعاهم إلى الله، وعرض عليهم نفسه، فقال بحيرة بن فراس (رجل منهم): والله لو أتي أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب، ثم قال: رأيت إن نحن بايعناك على أمرك، ثم أظهرك الله على من خالفك أ يكون لنا الأمر من بعدك؟ قال: الأمر إلى الله، يضعه حيث يشاء، فقال له: أفتهدف نحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا، لا حاجة لنا بأمرك، فأبوا عليه.

ولما رجعت بنو عامر تحدثوا إلى شيخ لهم لم يواف الموسم، لكبر سنه، وقالوا له: جاءنا فتى من قريش من بني عبد المطلب، يزعم أنه نبي، يدعوننا إلى أن نمنعه، ونقوم معه، ونخرج به إلى بلادنا، فوضع الشيخ يديه على رأسه، ثم قال: يا بني عامر هل لها من تلاف؟ لذئابها^(١) من مطلب؟ والذي نفس فلان بيده ما تقولها إسماعيلي قط، وإنما حق، فأين رأيكم كان عنكم^(٢)؟

المؤمنون من غير أهل مكة:

وكما عرض رسول الله ﷺ الإسلام على القبائل والوفود، عرض على الأفراد والأشخاص، وحصل من بعضهم على ردود صالحة، وآمن به عدة رجال بعد هذا الموسم بقليل. وهناك لوحة منهم:

١ - سويد بن صامت - كان شاعراً لبيباً من سكان يثرب، يسميه قومه الكامل، جلده وشعره وشرفه ونسبه، جاء مكة حاجاً أو معتمراً، فدعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام، فقال: لعل الذي معك مثل الذي معي. فقال له رسول الله ﷺ: وما الذي معك. قال: حكمة لقمان. قال: اعرضها علي. فعرضها، فقال له رسول الله ﷺ: إن بدا الكلام حسن، والذي معي أفضل من هذا: قرآن أنزله الله تعالى علي، هو هدي ونور، فتلا عليه رسول الله ﷺ القرآن، ودعاه إلى الإسلام، فأسلم، وقال: إن هذا انبؤل حسن. فلما قدم المدينة لم يلبث أن قتل يوم بعث^(٣). وكان إسلامه في أوائل سنة

(١) مثل يضرب لنا فوات. وأصله من ذئابي الطائر إذا أفلت من حباله فطلبت الأحد بدناها.

(٢) ابن هشام ١/٤٢٤، ٤٢٥.

(٣) نفس المصدر ١/٤٢٥، ٤٢٦، ٤٢٧، رحمة للعلمين ١/٧٤.

٢ - إياس بن معاذ - كان غلاماً حدثاً من سكان يثرب، قدم في وفد من الأوس، جاؤوا يلتصقون الخلف من قريش على قومهم من الخزرج، وذلك قبيل حرب بعاث في أوائل سنة ١١ من النبوة، إذ كانت نيران العداوة متقدة في يثرب بين القبيلتين - وكان الأوس أقل عدداً من الخزرج - فلما علم رسول الله ﷺ بمقدمهم جاءهم فجلس إليهم، وقال لهم: هل لكم في خير مما جئتم له؟ فقالوا: وما ذاك؟ قال: أنا رسول الله، بعثني إلى العباد، أَدْعُوهم أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً، وأنزل عليّ الكتاب، ثم ذكر لهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، فقال إياس بن معاذ: أي قوم، هذا والله خير مما جئتم له، فأخذ أبو الحيسر أنس بن رافع - رجل كان في الوفد - حفنة من تراب البطحاء فرمى بها وجه إياس، وقال: دعنا عنك، فلعمري لقد جئنا لغير هذا، فصمت إياس وقام رسول الله ﷺ، وانصرفوا إلى المدينة من غير أن ينجحوا في عقد حلف مع قريش.

وبعد رجوعهم إلى يثرب لم يلبث إياس أن هلك، وكان يهمل ويكبر ويحمد، ويسبح عند موته، فلا يشكون أنه مات مسلماً^(٢).

٣ - أبو ذر الغفاري - وكان من سكان نواحي يثرب، ولما بلغ إلى يثرب خير مبعث النبي ﷺ بسويد بن صامت وإياس بن معاذ وقع في أذن أبي ذر أيضاً، وصار سبباً لإسلامه^(٣).

روى البخاري عن ابن عباس قال: قال أبو ذر: كنت رجلاً من غفار، فبلغنا أن رجلاً قد خرج بمكة يزعم أنه نبي، فقلت: لأخي انطلق إلى هذا الرجل وكلمه، وأتني بخبره، فانطلق، فلقيه، ثم رجع، فقلت: ما عندك؟ فقال: والله لقد رأيت رجلاً يأمر بالخير، وينهى عن الشر، فقلت له: لم تشفني من الخبر، فأخذت جراباً وعصاً، ثم أقبلت إلى مكة، فجعلت لا أعرفه، وأكره أن أسأل عنه، وأشرب من ماء زمزم وأكون في المسجد. قال: فمر بي عليّ. فقال: كأن الرجل غريب؟ قال: قلت: نعم. فقال: فانطلق إلى المنزل، فانطلقت معه، لا يسألني عن شيء ولا أسأله ولا أخبره. فلما أصبحت غدوت إلى المسجد، لأسأل عنه، وليس أحد يخبرني عنه بشيء. قال: فمر بي عليّ فقال:

(١) تاريخ إسلام للتجيب آبادي ١٢٥/١.

(٢) ابن هشام ٤٢٧/١، ٤٢٨، وتاريخ إسلام للتجيب آبادي ١٢٦/١.

(٣) نفس المصدر الأخير ١٢٨/١.

أما زال للرجل يعرف منزله بعد؟ قال: قلت لا. قال: فانطلق معي، قال: فقال: ما أمرك؟ وما أقدمك هذه البلدة؟ قال: قلت له: إن كتبت عليّ أخبرتكم، قال: فإني أفعل، قال: قلت له: بلغنا أنه قد خرج ههنا رجل يزعم أنه نبي الله، فأرسلت أخي بكلمه، فرجع ولم يشفني من الخبر، فأردت أن ألقاه.

فقال له: أما إنك قد رشدت، هذا وجهي إليه، ادخل حيث أدخل، فإني إن رأيت أحداً أخافه عليك قمت إلى الحائط كأني أصلح نعلي، وامض أنت، فمضى، ومضيت معه حتى دخل، ودخلت معه على النبي ﷺ، فقلت له: اعرض علي الإسلام، فعرضه، فأسلمت مكاني، فقال لي: يا أبا ذر، اكنم هذا الأمر، وارجع إلى بلدك، فإذا بلغك ظهورنا فأقبل. فقلت: والذي بعثك بالحق لأصرخن بها بين أظهرهم، فجئت إلى المسجد وقريش فيه، فقلت: يا معشر قريش، إني أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فقالوا: قوموا إلى هذا الصابي. فقاموا، فضربت لأموت، فأدركني العباس، فأكب علي، ثم أقبل عليهم فقال، ويلكم تقتلون رجلاً من غفار؟ ومتجرم وممرم على غفار. فأقلعوا عني، فلما أن أصبحت الغد، رجعت، فقلت مثل ما قلت بالأمس، فقالوا قوموا إلى هذا الصابي، فصنع بي ما صنع بالأمس، فأدركني العباس، فأكب علي وقال مثل مقالته بالأمس^(١).

٤ - طفيل بن عمرو الدوسي - كان رجلاً شريفاً شاعراً لبيباً رئيس قبيلة دوس، وكان لقبيلته إمارة أو شبه إمارة في بعض نواحي اليمن، قدم مكة في عام ١١ من النبوة، فاستقبله أهلها قبل وصوله إليها، وبذلوا له أجل تحية وأكرم التقدير، وقالوا له: يا طفيل، إنك قدمت بلادنا، وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعضل بنا، وقد فرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وإنما قوله كالسحر، يفرق بين الرجل وأبيه، وبين الرجل وأخيه، وبين الرجل وزوجه، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا، فلا تكلمه ولا تسمع من شياً.

يقول طفيل: فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت أن لا أسمع منه شيئاً ولا أكلمه، حتى حشوت أذني حين غدوت إلى المسجد كرسفاً؛ فرقا من أن يبلغني شيء من قوله، قال فغدوت إلى المسجد، فإذا هو قائم يصلي عند الكعبة، فقممت قريباً منه، فأبى الله إلا أن يسمعي بعض قوله، فسمعت كلاماً حسناً، فقلت في نفسي: واااا كل أمي، والله إني

(١) صحيح البخاري باب قصة زمزم ٤٩٩/١، ٥٠٠ وباب إسلام أبي ذر ٥٤٤/١، ٥٤٥.

رجل لبيب شاعر، ما يخفى علي الحسن من القبيح، فما يعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول؟ فإن كان حسناً قبلته، وإن كان قبيحاً تركته، فمكثت حتى انصرف إلى بيته، فاتبعته، حتى إذا دخل بيته دخلت عليه فعرضت عليه قصة مقدمي، وتخويف الناس إياي، وسد الأذن بالكرسف، ثم سماع بعض كلامه، وقلت له: اعرض علي أمرك، فعرض علي الإسلام، وتلا علي القرآن، فوالله ما سمعت قولاً قط أحسن منه، ولا أمراً أعدل منه، فأسلمت وشهدت شهادة الحق، وقلت له: إني مطاع في قومي، وراجع إليهم، وداعيتهم إلى الإسلام، فادع الله أن يجعل لي آية، فدعا.

وكانت آيته أنه لما دنا من قومه جعل الله نوراً في وجهه مثل المصباح، فقال: اللهم في غير وجهي، أخشى أن يقولوا: هذه مثلة، فتحول النور إلى سوطه، فدعا أباه وزوجته إلى الإسلام فأسلما، وأبطأ عليه قومه في الإسلام لكن لم يزل بهم حتى هاجر بعد الخندق^(١) ومعه سبعون أو ثمانون بيتاً من قومه، وقد أبلى في الإسلام بلاء حسناً، وقتل شهيداً يوم اليمامة^(٢).

٥ - ضهاد الأزدي - كان من أزد شنوءة من اليمن، وكان يركي من هذا الريح، قدم مكة فسمع سفهاءها يقولون: إن محمداً مجنون، فقال: لو أني أتيت هذا الرجل لعل الله يشفيه علي يدي، فلقبه، فقال: يا محمد، إني أركي من هذا الريح، فهل لك؟ فقال رسول الله ﷺ: إن الحمد لله نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أما بعد.

فقال: أعد علي كلماتك هؤلاء، فأعادهن عليه رسول الله ﷺ ثلاث مرات، فقال: لقد سمعت قول الكهنة وقول السحرة وقول الشعراء، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء، ولقد بلغن قاموس البحر، هات يدك أبايعك علي الإسلام، فبايعه^(٣).

ست نسبات طيبة من أهل يثرب:

وفي موسم الحج من سنة ١١ من النبوة - يوليو سنة ٦٣٠ م - وجدت الدعوة الإسلامية

(١) بل وبعد الحديبية فقد قدم المدينة ورسول الله ﷺ، انظر ابن هشام ٣٨٥/١.

(٢) ابن هشام ٣٨٣/١، ٣٨٤، ٣٨٥، رحة للعالمين ٨١/١، ٨٢، مختصر سيرة الرسول للشيخ

عبدالله النجدي ص ١٤٤، تاريخ إسلام للنقيب أبادي ١٢٧/١

(٣) رواه مسلم، مشكاة المصابيح، باب علامات النبوة ٥٣٥/٢.

بدوراً صالحة، سرعان ما تحولت إلى شجرات باسقات، اتقى المسلمون في ظلها الوارفة عن لفحات الظلم والطغيان طيلة أعوام.

وكان من حكمته ﷺ - إزاء ما كان يلقي من أهل مكة من التكذيب والصد عن سبيل الله - أنه كان يخرج إلى القبائل في ظلام الليل، حتى لا يحول بينه وبينهم أحد من أهل مكة المشركين^(١).

خرج كذلك ليلة ومعه أبو بكر وعلي، فمر على منازل ذهل وشيبان بن ثعلبة وكلمهم في الإسلام. وقد دارت بين أبي بكر وبين رجل من ذهل أسئلة وردود طريفة، وأجاب بنو شيبان بأرجى الأجوبة، غير أنهم توقفوا في قبول الإسلام^(٢).

ثم مر رسول الله ﷺ بعقبة منى، فسمع أصوات رجال يتكلمون^(٣)، فعمدهم حتى لحقهم، وكانوا ستة نفر من شباب يثرب، كلهم من الخزرج، وهم:

- (١) أسعد بن زرارة (من بني النجار)
- (٢) عوف بن الحارث بن رفاعة، ابن عفراء (من بني النجار)
- (٣) رافع بن مالك بن العجلان (من بني زريق)
- (٤) قطبة بن عامر بن حديدة (من بني سلمة)
- (٥) عقبة بن عامر بن نابي (من بني حرام بن كعب)
- (٦) جابر بن عبدالله بن رئاب (من بني عبيد بن غنم)

وكان من سعادة أهل يثرب أنهم كانوا يسمعون من حلفائهم من يهود المدينة أن نبياً من الأنبياء مبعوث في هذا الزمان، سيخرج فنتبعه، ونقتلكم معه قتل عاد وإرم^(٤).

فلما لحقهم رسول الله ﷺ قال لهم: من أنتم، قالوا: نفر من الخزرج، قال: من موالي اليهود؟ أي حلفائهم، قالوا: نعم. قال: أفلا تجلسون أكلكم؟ قالوا: بلى. فجلسوا معه، فشرح لهم حقيقة الإسلام ودعوته، ودعاهم إلى الله عز وجل، وتلا عليهم القرآن. فقال بعضهم لبعض: تعلمون والله يا قوم، إنه للنبي الذي توعدكم به يهود، فلا تسبقنكم إليه فأسرعوا إلى إجابة دعوته وأسلموا.

(١) تاريخ إسلام للنقيب آبادي ١/١٢٩.

(٢) انظر مختصر سيرة الرسول للشيخ عبدالله النجدي ص ١٥٠، ١٥١، ١٥٢.

(٣) رحمة للعالمين ١/٨٤.

(٤) زاد المعاد ٢/٥٠، وابن هشام ١/٤٢٩، ٥٤١.

وكانوا من عقلاء يثرب، أنهكتهم الحرب الأهلية التي مضت من قريب، والتي لا يزال هيبها مستعراً، فأملوا أن تكون دعوته سبباً لوضع الحرب، فقالوا: إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم، فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك.

ولما رجع هؤلاء إلى المدينة حلوا إليها رسالة الإسلام، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر رسول الله ﷺ^(١).

استطراد - تزويج رسول الله ﷺ بعائشة:

وفي شوال من هذه السنة - سنة ١١ من النبوة - تزوج رسول الله ﷺ عائشة الصديقة رضي الله عنها، وهي بنت ست سنين وبني بها بالمدينة في شوال في السنة الأولى من الهجرة وهي بنت تسع سنين^(٢).

(١) نفس المصدر ١/٤٢٨، ٤٢٩، ٤٣٠.

(٢) تلقيح فهوم أهل الأثر ص ١٠، صحيح البخاري ١/٥٥١

الإسراء والمعراج

وبينا النبي ﷺ في هذه المرحلة التي كانت دعوته تشق فيها طريقاً بين النجاح والإضطهاد، وكانت تترامى نجومها ضئيلة تتلمح في آفاق بعيدة، وقع حادث الإسراء والمعراج.

واختلف في تعيين زمنه على أقوال شتى:

- ١ - فقييل: كان الإسراء في السنة التي أكرمه الله فيها بالنبوة، اختاره الطبري.
- ٢ - وقيل: كان بعد المبعث بخمس سنين، رجح ذلك النووي والقرطبي.
- ٣ - وقيل: كان ليلة السابع والعشرين من شهر رجب سنة ١٠ من النبوة، واختاره العلامة المنصور فوري.

٤ - وقيل: قبل الهجرة بستة عشر شهراً، أي في رمضان سنة ١٢ من النبوة.

٥ - وقيل: قبل الهجرة بسنة وشهرين، أي في المحرم سنة ١٣ من النبوة.

٦ - وقيل: قبل الهجرة بسنة، أي في ربيع الأول سنة ١٣ من النبوة.

وردت الأقوال الثلاثة الأول بأن خديجة رضي الله عنها توفيت في رمضان سنة عشر من النبوة، وكانت وفاتها قبل أن تفرض الصلوات الخمس، ولا خلاف أن فرض الصلوات الخمس كانت ليلة الإسراء^(١). أما الأقوال الثلاثة الباقية فلم أجد ما أرجح به واحداً منها، غير أن سياق سورة الإسراء يدل على أن الإسراء متأخر جداً.

وروى أئمة الحديث تفاصيل هذه الواقعة. وفيما يلي نسردها بإيجاز:

قال ابن القيم: أسري برسول الله ﷺ، بجسده على الصحيح، من المسجد الحرام إلى بيت المقدس، راكباً على البراق، صحبة جبريل عليها الصلاة والسلام، فنزل هناك، وصلى بالأنبياء إماماً، وربط البراق بحلقة باب المسجد.

ثم عرج به تلك الليلة من بيت المقدس إلى السماء الدنيا، فاستفتح له جبريل، ففتح

^(١) انظر لهذه الأقوال زاد المعاد ٤٩/٢، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبدالله النجدي ص ١٤٨، ١٤٩، راحة للعالمين ٧٦/١ وتاريخ إسلام للنقيب أبادي ١٣٤/١.

له ، فرأى هنالك آدم أبا البشر ، فسلم عليه ، فرحب به ، ورد عليه السلام ، وأقر بنبوته ، وأراه الله أرواح الشهداء عن يمينه ، وأرواح الأشقياء عن يساره .

ثم عرج به إلى السماء الثانية ، فاستفتح له ، فرأى فيها يحيى بن زكريا وعيسى بن مريم ، فلقيهما وسلم عليهما ، فردا عليه ، ورحبا به ، وأقرا بنبوته .

ثم عرج به إلى السماء الثالثة ، فرأى فيها يوسف ، فسلم عليه ، فرد عليه ورحب به ، وأقر بنبوته .

ثم عرج به إلى السماء الرابعة ، فرأى فيها إدريس ، فسلم عليه ، ورحب به وأقر بنبوته .

ثم عرج به إلى السماء الخامسة ، فرأى فيها هارون بن عمران ، فسلم عليه ، ورحب به ، وأقر بنبوته .

ثم عرج به إلى السماء السادسة فلقي فيها موسى بن عمران ، فسلم عليه ورحب به ، وأقر بنبوته .

فلما جاوزه بكى موسى ، فقيل له : ما يبكيك ؟ فقال : أبكي لأن غلاماً بعث من بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي .

ثم عرج به إلى السماء السابعة ، فلقي فيها إبراهيم عليه السلام ، فسلم عليه ، ورحب به ، وأقر بنبوته .

ثم رفع إلى سدرة المنتهى ، ثم رفع له البيت المعمور .

ثم عرج به إلى الجبار جل جلاله ، فدنا منه حتى كان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إلى عبده ما أوحى ، وفرض عليه خمسين صلاة ، فرجع حتى مرّ على موسى ، فقال له : بم أمرك ؟ قال بخمسين صلاة : قال : إن أمتك لا تطيق ذلك ، ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك ، فالتفت إلى جبريل ، كأنه يستشيريه في ذلك ، فأشار : أن نعم ، إن شئت ، فعلا به جبريل حتى أتى به الجبار تبارك وتعالى ، وهو في مكانه - هذا لفظ البخاري في بعض الطرق - فوضع عنه عشرآ ، ثم أنزل حتى مر بموسى ، فأخبره ، فقال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، فلم يزل يتردد بين موسى وبين الله عز وجل ، حتى جعلها خمساً ، فأمره موسى بالرجوع وسؤال التخفيف ، فقال : قد استحييت من ربي ، ولكني أرضى وأسلم ، فلما بعد نادى مناد : قد أمضيت فريضي وخففت عن عبادي - انتهى^(١) .

(١) زاد المعاد ٢/٤٧ ، ٤٨ .

ثم ذكر ابن القيم خلافاً في رؤيته ﷺ ربه تبارك وتعالى، ثم ذكر كلاماً لابن تيمية بهذا الصدد، وحاصل البحث أن الرؤية بالعين لم تثبت أصلاً وهو قول لم يقله أحد من الصحابة. وما نقل عن ابن عباس من رؤيته مطلقاً ورؤيته بالفؤاد فالأول لا ينافي الثاني.

ثم قال: وأما قوله تعالى في سورة النجم ﴿ثم دنا فتدلى﴾ [٥٣: ٨] فهو غير الدنو الذي في قصة الإسراء، فإن الذي في سورة النجم هو دنو جبريل، وتدليه، كما قالت عائشة وابن مسعود، والسياق يدل عليه، وأما الدنو والتدلي في حديث الإسراء فذلك صريح في أنه دنو الرب تبارك وتعالى وتدليه، ولا تعرض في سورة النجم لذلك، بل فيه أنه رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى. وهذا هو جبريل، رآه محمد ﷺ على صورته مرتين: مرة في الأرض، ومرة عند سدرة المنتهى. والله أعلم^(١) انتهى.

وقد وقع حادث شق صدره ﷺ هذه المرة أيضاً، وقد رأى ضمن هذه الرحلة أموراً عديدة:

عرض عليه اللبن والخمر، فاختر اللبن، فقليل: هديت الفطرة أو أصبت الفطرة، أما إنك لو أخذت الخمر غوت أمتك.

ورأى أربعة أنهار في الجنة: نهران ظاهران، ونهران باطنان، والظاهران هما: النيل والفرات، ومعنى ذلك أن رسالته ستتوطن الأودية الخصبة في النيل والفرات، وسيكون أهلها حلة الإسلام جيلاً بعد جيل، وليس معناه أن مياه النهرين تنبع من الجنة.

ورأى مالك خازن النار، وهو لا يضحك، وليس على وجهه بشر وبشاشة، وكذلك رأى الجنة والنار.

ورأى أكلة أموال اليتامى ظلماً لهم مشافر كمشافر الإبل، يقذفون في أفواههم قطعاً من نار كالأفهار، فتخرج من أديبارهم.

ورأى أكلة الربا لهم بطون كبيرة، لا يقدرون لأجلها أن يتحولوا عن مكانهم، ويمر بهم آل فرعون حين يعرضون على النار فيطأونهم.

ورأى الزناة بين أيديهم لحم سمين طيب إلى جنبه لحم غث منتن، يأكلون من الغث المنتن، ويتركون الطيب السمين.

(١) زاد المعاد ٢/٤٧، ٤٨، وانظر صحيح البخاري ١/٥٠٠، ٤٥٥، ٤٥٦، ٤٧٠، ٤٧١، ٤٨١، ٥٤٨، ٥٤٩، ٥٥٠، ٦٨٤/٢، وصحيح مسلم ١/٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٤، ٩٥، ٩٦.

ورأى النساء اللاتي يدخلن على الرجال من ليس من أولادهم، رأهن معلقات
بثديهن .

ورأى عيراً من أهل مكة في الإياب والذهاب، وقد دلم على بعير نذ لهم، وشرب
ماءهم من إناء مغطى وهم نائمون، ثم ترك الإناء مغطى، وقد صار ذلك دليلاً على
صدق دعواه في صباح ليلة الإسراء (١) .

قال ابن القيم: فلما أصبح رسول الله ﷺ في قومه أخبرهم بما أراه الله عز وجل من
آياته الكبرى، فاشتد تكذيبهم له وأذاهم واستضرارهم عليه، وسألوه أن يصف لهم بيت
المقدس، فجلاه الله له، حتى عاينه، فطفق يخبرهم عن آياته، ولا يستطيعون أن يردوا
عليه شيئاً، وأخبرهم عن غيرهم في مسراه ورجوعه، وأخبرهم عن وقت قدمها،
وأخبرهم عن البعير الذي يقدمها وكان الأمر كما قال، فلم يزداهم ذلك إلا نفوراً، وأبى
الظالمون إلا كفوراً (٢) .

يقال سمى أبو بكر رضي الله عنه صديقاً؛ لتصديقه هذه الواقعة حين كذبها
الناس (٣) .

وأوجز وأعظم ما ورد في تعليل هذه الرحلة هو قوله تعالى: ﴿لنزيه من آياتنا﴾
[١٧ : ١] وهذه سنة الله في الأنبياء، قال: ﴿وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات
والأرض، وليكون من الموقنين﴾ [٦ : ٧٥] وقال موسى: ﴿لنريك من آياتنا الكبرى﴾
[٢٠ : ٢٣] وقد بين مقصود هذه الإرادة بقوله: ﴿وليكون من الموقنين﴾ فبعد استناد
علوم الأنبياء إلى رؤية الآيات يحصل لهم من عين اليقين ما لا يقادر قدره، وليس الخبر
كالمعينة، فيتحملون في سبيل الله ما لا يتحمل غيرهم، وتصير جميع قوات الدنيا عندهم
كجناح بعوضة لا يعبأون بها إذا ما تدول عليهم بالمحن والعذاب .

والحكم والأسرار التي تمكن وراء جزئيات هذه الرحلة إنما محل بحثها كتب أسرار
الشريعة، ولكن هنا حقائق بسيطة تتفجر من ينبوع هذه الرحلة المباركة وتندفق إلى
حدائق أزهار السيرة النبوية - على صاحبها الصلاة والسلام والتحية - أرى أن أسجل
بعضاً منها بالإيجاز:

(١) المصادر السابقة وابن هشام ١/٣٩٧، ٤٠٢، ٤٠٣، ٤٠٤، ٤٠٥، ٤٠٦ .

(٢) زاد المعاد ١/٤٨، وانظر أيضاً صحيح البخاري ٢/٦٨٤، وصحيح مسلم ١/٩٦، وابن هشام
١/٤٠٢، ٤٠٣ .

(٣) نفس المصدر الأخير ١/٣٩٩ .

يرى القارىء في سورة الإسراء أن الله ذكر قصة الإسراء في آية واحدة فقط، ثم أخذ في ذكر فضائح اليهود وجرائمهم، ثم نبههم بأن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم، وربما يظن القارىء أن الآيتين ليس بينهما ارتباط، والأمر ليس كذلك، فإن الله تعالى بشير بهذا الأسلوب إلى أن الإسراء إنما وقع إلى بيت المقدس؛ لأن اليهود سيعزلون عن منصب قيادة الأمة الإنسانية؛ لما ارتكبوا من الجرائم التي لم يبق معها مجال لبقائهم على هذا المنصب، وأن الله سينقل هذا المنصب فعلاً إلى رسوله ﷺ، ويجمع له مركزي لدعوة الإبراهيمية كليهما، فقد آن أوان انتقال القيادة الروحية من أمة إلى أمة، من أمة علأت تاريخها بالعدو والخيانة والإثم والعدوان، إلى أمة تتدفق بالبر والخيرات، ولا يزال رسولها يتمتع بوحى القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم.

ولكن كيف تنتقل هذه القيادة، والرسول يطوف في جبال مكة مطروداً بين الناس، هذا السؤال يكشف الغطاء عن حقيقة أخرى، وهي أن دوراً من هذه الدعوة الإسلامية قد أوشك إلى النهاية والتام، وسيبدأ دور آخر يختلف عن الأول في مجراه، ولذلك نرى بعض الآيات تشتمل على إنذار سافر ووعيد شديد بالنسبة إلى المشركين ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً﴾ [١٧ : ١٧] : [١٦] ﴿وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح، وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً نصيراً﴾ [١٧ : ١٧] وبجنب هذه الآيات آيات أخرى تبين للمسلمين قواعد الحضارة وبنودها ومبادئها التي يبتنى عليها مجتمعاتهم الإسلامي، كأنهم قد أووا إلى الأرض، تملكوا فيها أمورهم من جميع النواحي، وكونوا وحدة متمسكة تدور عليها رحى المجتمع، ففيه إشارة إلى أن الرسول ﷺ سيجد ملجأً ومأمناً يستقر فيه أمره، ويصير مركزاً لبث دعوته في أرجاء الدنيا. هذا سر من أسرار هذه الرحلة المباركة، يتصل ببحثنا، فأثرنا ذكره.

ولأجل هذه الحكمة وأمثالها نرى أن الإسراء إنما وقع إما قبيل بيعة العقبة الأولى أو بين العقبتين، والله أعلم.

بيعة العقبة الأولى

قد ذكرنا أن ستة من أهل يثرب أسلموا في موسم الحج سنة ١١ من النبوة، وواعدوا رسول الله ﷺ إبلاغ رسالته في قومهم.

وكان من جراء ذلك أن جاء في الموسم التالي - موسم الحج سنة ١٢ من النبوة يوليو سنة ٦٢١ - إثنا عشر رجلاً، فيهم خمسة من الستة الذين كانوا قد اتصلوا برسول الله ﷺ في العام السابق - والسادس الذي لم يحضر هو جابر بن عبد الله بن رثاب - وسبعة سواهم. وهم:

- | | | |
|-------------------------------|--------------------|-------------|
| ١ - معاذ بن الحارث، ابن عفراء | من بني النجار | (من الخزرج) |
| ٢ - ذكوان بن عبد القيس | من بني زريق | (من الخزرج) |
| ٣ - عبادة بن الصامت | من بني غنم | (من الخزرج) |
| ٤ - يزيد بن ثعلبة | من حلفاء بني غنم | (من الخزرج) |
| ٥ - العباس بن عبادة بن نضلة | من بني سالم | (من الخزرج) |
| ٦ - أبو الهيثم بن التيهان | من بني عبد الأشهل | (من الأوس) |
| ٧ - عويم بن ساعدة | من بني عمرو بن عوف | (من الأوس) |
- الأخيران من الأوس، والبقية كلهم من الخزرج (١).

اتصل هؤلاء برسول الله ﷺ عند العقبة بمضى، فبايعوه بيعة النساء، أي وفق بيعتهن التي نزلت عند فتح مكة.

روى البخاري عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: تعالوا، بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدنيا فهو له كفارة، ومن أصاب من ذلك

(١) رحمة للعالمين ١/٨٥ وابن هشام ١/٤٣١، ٤٣٢، ٤٣٣.

شيئاً فستره الله، فأمره إلى الله، إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عنه. قال: فبايعته - وفي نسخة فبايعناه - على ذلك (١).

سفير الإسلام في المدينة:

وبعد أن تمت البيعة وانتهى الموسم بعث النبي ﷺ مع هؤلاء المبايعين أول سفير في يثرب، ليعلم المسلمين فيها شرائع الإسلام، ويفقههم في الدين وليقوم بنشر الإسلام بين الذين لم يزالوا على الشرك، واختار لهذه السفارة شاباً من شباب الإسلام من السابقين الأولين، وهو مصعب بن عمير العبدي رضي الله عنه.

النجاح المغتبط:

نزل مصعب بن عمير على أسعد بن زرارة، وأخذاً يبتان الإسلام في أهل يثرب يجد وحاس، وكان مصعب يعرف بالمقرىء.

ومن أروع ما يروى من نجاحه في الدعوة أن أسعد بن زرارة خرج به يوماً يريد دار بني عبد الأشهل ودار بني ظفر، فدخلوا في حائط من حوائط بني ظفر، وجلسا على بشر يقال لها بئر مرق، واجتمع إليهما رجال من المسلمين - وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير سيدا قومهما من بني عبد الأشهل يومئذ على الشرك - فلما سمعا بذلك قال سعد لأسيد: اذهب إلى هذين اللذين قد أتيا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما، وانهبها عن أن يأتيا دارينا، فإن أسعد بن زرارة ابن خالتي، ولولا ذلك لكفيتك هذا.

فأخذ أسيد حربته وأقبل إليهما، فلما رآه أسعد قال لمصعب: هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه، قال مصعب: إن يجلس أكلمه. وجاء أسيد فوقف عليها متشتماً، وقال: ما جاء بكما إلينا؟ تسفهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة، فقال له مصعب: أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كف عنك ما تكره، فقال: أنصفت، ثم ركز حربته وجلس، فكلمه مصعب بالإسلام، وتلا عليه القرآن. قال: فوالله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم، وفي إشراقه وتهلله، ثم قال: ما أحسن هذا وأجمله؟ كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟

(١) صحيح البخاري، باب بعد حلاوة الإيمان ٧/١، باب وفود الأنصار ٥٥٠/١، ٥٥١ واللفظ من هذا الباب، وباب قوله تعالى: إذا جاءك المؤمنات ٢/٢٢٧، باب الحدود كفارة ٢/١٠٠٣.

قالا له : تغتسل ، وتطهر ثوبك ، ثم تشهد شهادة الحق ، ثم تصلي ركعتين . فقام واغتسل ، وطهر ثوبه ، وتشهد وصلي ركعتين ، ثم قال : إن ورائي رجلاً إن تبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه ، وسأرشده إليكما الآن - سعد بن معاذ - ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد في قومه ، وهم جلوس في ناديبهم ، فقال سعد : أحلف بالله لقد جاءكم بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم .

فلما وقف أسيد على النادي قال له سعد : ما فعلت ؟ فقال : كلمت الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأساً ، وقد نهيتها فقالا : نفعل ما أحببت .

وقد حدثت أن بني حارثة خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه - وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك - ليخفروك ، فقام سعد مغضبا للذي ذكر له ، فأخذ حربته ، وخرج إليهما ، فلما رآهما مطمئنين عرف أن أسيداً إنما أراد منه أن يسمع منهما ، فوقف عليهما متشتماً ، ثم قال لأسعد بن زرارة : والله يا أبا أمامة لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رمت هذا مني ، تغشانا في دارنا بما نكره ؟

وقد كان أسعد قال لمصعب : جاءك والله سيد من ورائه قومه ، إن يتبعك لم يتخلف عنك منهم أحد ، فقال مصعب لسعد بن معاذ : أو تقعد فتسمع ؟ فإن رضيت أمراً قبلته ، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره ، قال : قد أنصفت ، ثم ركز حربته فجلس ، فعرض عليه الإسلام ، وقرأ عليه القرآن ، قال : فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم ، في إشراقه وتهلله ، ثم قال : كيف تصنعون إذا أسلمتم ؟ قالوا : تغتسل ، وتطهر ثوبك ، ثم تشهد شهادة الحق ، ثم تصلي ركعتين . ففعل ذلك .

ثم أخذ حربته ، فأقبل إلى نادي قومه ، فلما رأوه قالوا : نحلف بالله لقد رجع بغير الوجه الذي ذهب به .

فلما وقف عليهم قال : يا بني عبد الأشهل ، كيف تعلمون أمري فيكم ؟ قالوا : سيدنا وأفضلنا رأيا ، وأميننا نقيية ، قال : فإن كلام رجالكم ونسائكم علي حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله . فما أمسى فيهم رجل ولا امرأة إلا مسلماً ومسلمة إلا رجل واحد - وهو الأصيرم - تأخر إسلامه إلى يوم أحد ، فأسلم ذلك اليوم وقاتل وقتل ، ولم يسجد لله سجدة ، فقال النبي ﷺ : « عمل قليلاً وأجر كثيراً » .

وأقام مصعب في بيت أسعد بن زرارة يدعو الناس إلى الإسلام، حتى لم تبقى دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون، إلا ما كان من دار بني أمية بن زيد وخطمة ووائل، كان فيهم قيس بن الأسلت الشاعر - وكانوا يطيعونه - فوقف بهم عن الإسلام حتى كان عام الخندق سنة خمس من الهجرة.

وقبل حلول موسم الحج التالي - أي حج السنة الثالثة عشر - عاد مصعب بن عمير إلى مكة، يحمل إلى رسول الله ﷺ بشائر الفوز، ويقص عليه خبر قبائل يثرب، وما فيها من مواهب الخير، وما لها من قوة ومنعة^(١).

(١) ابن هشام ١/٤٣٥، ٤٣٦، ٤٣٧، و٢/٩٠، وزاد المعاد ٢/٥١.

بيعة العقبة الثانية

في موسم الحج في السنة الثالثة عشر من النبوة - يونيو سنة ٦٢٢ م - حضر لأداء مناسك الحج بضع وسبعون نفساً من المسلمين من أهل يثرب، جاؤا ضمن حجاج قومهم من المشركين، وقد تساءل هؤلاء المسلمون فيما بينهم - وهم لم يزالوا في يثرب أو كانوا في الطريق - حتى متى نترك رسول الله ﷺ يطوف ويتردد في جبال مكة ويخاف؟

فلما قدموا مكة جرت بينهم وبين النبي ﷺ اتصالات سرية، أدت إلى إتفاق الفريقين على أن يجتمعوا في أوسط أيام التشريق في الشعب الذي عند العقبة حيث الجمرة الأولى من منى، وأن يتم هذا الإجتماع في سرية تامة في ظلام الليل.

ولترك أحد قادة الأنصار يصف لنا هذا الإجتماع التاريخي، الذي حول مجرى الأيام في صراع الوثنية والإسلام، يقول كعب بن مالك الأنصاري رضي الله عنه:

* « خرجنا إلى الحج، وواعدنا رسول الله ﷺ بالعقبة من أوسط أيام التشريق، وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله ﷺ لها، ومعنا عبدالله بن عمرو بن حرام، سيد من ساداتنا وشريف من أشرافنا، أخذناه معنا - وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا - فكلمناه، وقلنا له: يا أبا جابر، إنك سيد من ساداتنا، وشريف من أشرافنا، وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون خطباً للنار غداً، ثم دعواناه إلى الإسلام وأخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ إيانا العقبة، قال: فأسلم وشهد معنا العقبة، وكان نقياً ».

* قال كعب: « فمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لمعاد رسول الله ﷺ، نتسلل تسلل القطا مستخفين، حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان من نساءنا؛ نسيبة بنت كعب - أم عمارة - من بني مازن بن النجار، وأسما بنت عمرو - أم منيع - من بني سلمة ».

فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا، ومعه (عمه) العباس بن

عبدالمطلب - وهو يومئذ على دين قومه - إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه، وتوثق له، وكان أول متكلم^(١).

بداية المحادثة وتشريح العباس لخطورة المسؤولية:

وبعد أن تكامل المجلس بدأت المحادثات لإبرام التحالف الديني والعسكري، وكان أول المتكلمين هو العباس بن عبدالمطلب عم رسول الله ﷺ. تكلم ليشرح لهم - بكل صراحة - خطورة المسؤولية التي ستلقى على كواهلهم نتيجة هذا التحالف. قال:

« يا معشر الخزرج - وكان العرب يسمون الأنصار خزرجاً، خزرجها وأوسها كليهما - إن محمداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عز من قومه، ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده ».

قال كعب: فقلنا له: قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت^(٢).

وهذا الجواب يدل على ما كانوا عليه من عزم وتصميم وشجاعة وإيمان وإخلاص في تحمل هذه المسؤولية العظيمة، وتحمل عواقبها الخطيرة.

وألقى رسول الله ﷺ بعد ذلك بيانه، ثم تمت البيعة.

بنود البيعة:

وقد روى ذلك الإمام أحمد عن جابر مفصلاً. قال جابر: قلنا: يا رسول الله على ما نبايعك؟ قال:

- ١ - على السمع والطاعة في النشاط والكسل.
- ٢ - وعلى النفقة في العسر واليسر.
- ٣ - وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- ٤ - وعلى أن تقوموا في الله، لا تأخذكم في الله لومة لائم.

(٢) نفس المصدر ١/٤٤١، ٤٤٢.

(١) ابن هشام ١/٤٤٠، ٤٤١.

٥ - وعلى أن تنصروني إذا قدمت إليكم، وتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة^(١).

وفي رواية كعب - التي رواها ابن إسحاق - البند الأخير فقط من هذه البنود، ففيه « قال كعب. فتكلم رسول الله ﷺ، فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغب في الإسلام، ثم قال: أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم. فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: نعم، والذي بعثك بالحق (نبياً) لنمنعك مما تمنع أزرنا^(٢) منه، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحرب وأهل الحلقة، ورثناها كابراً (عن كابر).

قال: فاعترض القول - والبراء يكلم رسول الله ﷺ - أبو الهيثم بن التيهان، فقال: يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبلاً، وإنا قاطعوها - يعني اليهود - فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟

قال: فتبسم رسول الله ﷺ، ثم قال: بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتهم، وأسالم من سالمتم^(٣).

التأكيد من خطورة البيعة:

وبعد أن تمت المحادثة حول شروط البيعة، وأجمعوا على الشروع في عقدها قام رجلان من الرعييل الأول من أسلموا في مواسم سنتي ١١، ١٢ من النبوة، قام أحدهما تلو الآخر، ليؤكدوا للقوم خطورة المسؤولية، حتى لا يبايعوه إلا على جلية من الأمر، وليعرفا مدى استعداد القوم للتضحية ويتأكدوا من ذلك.

قال ابن إسحاق: لما اجتمعوا للبيعة قال العباس بن عباد بن نضلة: هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم، قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة، وأشرافكم قتلاً أسلمتموه، فمن الآن، فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتوه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخرة.

(١) رواه الإمام أحمد بإسناد حسن، وصححه الحاكم وابن حبان، انظر مختصر سيرة الرسول للشيخ عبدالله النجدي ص ١٥٥، وروى ابن إسحاق ما يشبه هذا عن عباد بن عباد بن الصامت، وفيه بند زائد، وهو « وأن لا تنازع الأمر أهله، انظر ابن هشام ١/٤٥٤.

(٢) العرب تكنى عن المرأة بالإزار وتكنى أيضاً بالإزار عن النفس.

(٣) ابن هشام ١/٤٤٢.

قالوا: فإننا نأخذ على مصيبة الأموال وقتل الأشراف، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا بذلك؟ قال: الجنة. قالوا ابسط يدك، فبسط يده فبايعوه (١).

وفي رواية جابر (قال): فقمنا نبايعه، فأخذ بيده أسعد بن زرارة - وهو أصغر السبعين - فقال رويداً يا أهل يثرب، إننا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله، وأن إخراجهم اليوم مفارقة العرب كافة، وقتل خياركم، وأن تعضكم السيوف، فإما أنتم تصبرون على ذلك فخذوه، وأجرمكم على الله، وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه، فهو أعذر لكم عند الله (٢).

عقد البيعة:

وبعد إقرار بنود البيعة، وبعد هذا التأكيد والتأكد بدأ عقد البيعة بالمصافحة، قال جابر - بعد أن حكى قول أسعد بن زرارة -: فقالوا يا أسعد، أمط عنا يدك، فوالله لا نذر هذه البيعة، ولا نستقبلها (٣).

وحيث عرف أسعد مدى استعداد القوم للتضحية في هذا السبيل، وتأكد منه - وكان هو الداعية الكبير مع مصعب بن عمير، وبالطبع فكان هو الرئيس الديني على هؤلاء المبايعين - فكان هو السابق إلى هذه البيعة. قال ابن إسحاق: فبنو النجار يزعمون أن أبا أمامة أسعد بن زرارة كان أول من ضرب على يده (٤).

وبعد ذلك بدأت البيعة العامة، قال جابر: فقمنا إليه رجلاً رجلاً فأخذ علينا البيعة، يعطينا بذلك الجنة (٥).

وأما بيعة المرأتين اللتين شهدتا الواقعة فكانت قولاً. ما صافح رسول الله ﷺ امرأة أجنبية قط (٦).

(١) نفس المصدر ٤٤٦/١.

(٢) رواه الإمام أحمد من حديث جابر.

(٣) نفس المصدر.

(٤) قال ابن إسحاق: وبنو عبد الأشهل يقولون: بل أبو الهيثم بن التيهان، وقال كعب بن مالك: بل البراء بن معرور (ابن هشام ٤٤٧/١) قلت: لعلهم حسبوا ما دار بينها وبين الرسول ﷺ بيعة، وإلا فأحرى الناس بالتقدم إذا ذلك هو أسعد بن زرارة. والله أعلم.

(٥) مسند الإمام أحمد.

(٦) أنظر صحيح مسلم باب كيفية بيعة النساء ١٣١/٢.

اثنا عشر نقيباً:

وبعد أن تمت البيعة طلب رسول الله ﷺ انتخاب اثني عشر زعيماً يكونون نقباء على قومهم، يكفلون المسؤولية عنهم في تنفيذ بنود هذه البيعة، فقال للقوم: أخرجوا إلي منكم اثني عشر نقيباً، ليكونوا على قومكم بما فيهم.

فتم انتخابهم في الحال، وكانوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس. وهاك أسماؤهم:

نقباء الخزرج:

- ١ - أسعد بن زرارة بن عدس.
- ٢ - سعد بن الربيع بن عمرو.
- ٣ - عبدالله بن رواحة بن ثعلبة.
- ٤ - رافع بن مالك بن العجلان.
- ٥ - البراء بن معرور بن صخر.
- ٦ - عبدالله بن عمرو بن حرام.
- ٧ - عبادة بن الصامت بن قيس.
- ٨ - سعد بن عبادة بن دليم.
- ٩ - المنذر بن عمرو بن خنيس.

نقباء الأوس:

- ١ - أسيد بن حضير بن سماك.
- ٢ - سعد بن خيثمة بن الحارث.
- ٣ - رفاعة بن عبدالمنذر بن زبير^(١).

ولما تم انتخاب هؤلاء النقباء أخذ عليهم النبي ﷺ ميثاقاً آخر بصفتهم رؤساء مسؤولين.

قال لهم: أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحوارين لعيسى بن مريم، وأنا كفيل على قومي - يعني المسلمين - قالوا: نعم^(٢).

(١) زبير بالباء الموحدة، وقيل: بالتون. وقد قيل بدل رفاعة، أبو الهيثم بن التيهان.

(٢) ابن هشام ١/٤٤٣، ٤٤٤، ٤٤٦.

شيطان يكتشف المعاهدة:

ولما تم إبرام المعاهدة، وكان القوم على وشك الانفصاض، اكتشفها أحد الشياطين، وحيث جاء هذا الاكتشاف في اللحظة الأخيرة، ولم يكن يمكن إبلاغ زعماء قريش هذا اخبر سراً لبياعثوا المجتمعين وهم في الشعب؛ قام ذلك الشيطان على مرتفع من الأرض، وصاح بأنفذ صوت سمع قط: «يا أهل الأخاشب - المنازل - هل لكم في محمد والصبابة معه؟ قد اجتمعوا على حربكم».

فقال رسول الله ﷺ «هذا أذب العقبة، أما والله يا عدو الله لأتفرغن لك». ثم أمرهم أن ينفضوا إلى رحالهم^(١).

استعداد الأنصار لضرب قريش:

وعند سماع صوت هذا الشيطان قال العباس بن عباد بن نضلة: «والذي بعثك بالحق، إن شئت لتميلن على أهل منى غداً بأسيفنا». فقال رسول الله ﷺ: لم تؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم، فرجعوا وناموا حتى أصبحوا^(٢).

قريش تقدم الاحتجاج إلى رؤساء يثرب:

ولما قرع هذا الخبر آذان قريش وقعت فيهم ضجة أثارت القلاقل والأحزان، لأنهم كانوا على معرفة تامة من عواقب مثل هذه البيعة ونتائجها بالنسبة إلى أنفسهم وأموالهم، فما إن أصبحوا حتى توجه وفد كبير من زعماء مكة وأكابر مجرميها إلى مخيم أهل يثرب، ليقدّم احتجاجه الشديد على هذه المعاهدة. فقد قال:

«يا معشر الخزرج، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا، وإنه والله ما من حي من العرب أبغض إلينا من أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم»^(٣).

ولما كان مشركو الخزرج لا يعرفون شيئاً عن هذه البيعة؛ لأنها تمت في سرية تامة، وفي ظلام الليل، انبعث هؤلاء المشركون يحلفون بالله: ما كان من شيء، وما علمناه، حتى أتوا عبدالله بن أبي بن سلول، فجعل يقول: هذا باطل، وما كان هذا، وما كان قومي ليفتاتوا على مثل هذا، لو كنت بيثرب ما صنع قومي هذا حتى يؤامروني.

(١) نفس المصدر ٤٤٨/١.

(٢) ابن هشام ٤٤٨/١.

(٣) زاد المعاد ٥١/٢.

أما المسلمون فنظر بعضهم إلى بعض، ثم لاذوا بالصمت، فلم يتحدث أحد منهم بنفي أو إثبات.

ومال زعماء قريش إلى تصديق المشركين، فرجعوا خائبين.

تأكد الخبر لدى قريش ومطاردة المبايعين:

عاد زعماء مكة وهم على شبه اليقين من كذب هذا الخبر، لكنهم لم يزالوا ينتظرونه - يكثررون البحث عنه ويدققون النظر فيه - حتى تأكد لديهم أن الخبر صحيح، والبيعة قد تمت فعلاً. وذلك بعد ما نفر الحجاج إلى أوطانهم، فسارع فرسانهم بمطاردة اليربيين، ولكن بعد فوات الأوان، إلا أنهم تمكنوا من رؤية سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو، فطاردوهما، فأما المنذر فأعجز القوم، وأما سعد فألقوا القبض عليه، فربطوا يديه إلى عنقه بنسع رحله، وجعلوا يضربونه ويجرونه ويجرون شعره حتى أدخلوه مكة، فجاء المطعم بن عدي والحرث بن حرب بن أمية فخلصاه من أيديهم. إذ كان سعد يجير لها قوافلها المارة بالمدينة، وتشاورت الأنصار حين فقدوه أن يكروا إليه، فإذا هو قد طلع عليهم، فوصل القوم جميعاً إلى المدينة^(١).

هذه هي بيعة العقبة الثانية - التي تعرف ببيعة العقبة الكبرى - وقد تمت في جو تملوه عواطف الحب والولاء والتناصر بين أشقات المؤمنين، والثقة والشجاعة والاستبسال في هذا السبيل، فمؤمن من أهل يثرب يحنو على أخيه المستضعف في مكة، ويتعصب له، ويغضب من ظالمه، وتجيش في حناياه مشاعر الود لهذا الأخ الذي أحبه بالغيب في ذات الله.

ولم تكن هذه المشاعر والعواطف نتيجة نزعة عابرة تزول على مر الأيام، بل كان مصدرها هو الإيمان بالله وبرسوله وبكتابه، إيمان لا يزول أمام أي قوة من قوات الظلم والعدوان، إيمان إذا هبت ريحه جاءت بالعجائب في العقيدة والعمل، وبهذا الإيمان استطاع المسلمون أن يسجلوا على أوراق الدهر أعمالاً، ويتركوا عليها آثاراً، خلا عن نظائرها الغابر والحاضر، وسوف يخلو المستقبل.

(١) زاد المعاد ٥١/٢، ابن هشام ٤٤٨/١، ٤٤٩، ٤٥٠.

طلائع الهجرة

وبعد أن تمت بيعة العقبة الثانية، ونجح الإسلام في تأسيس وطن له وسط صحراء
تموج بالكفر والجهالة - وهو أخطر كسب حصل عليه الإسلام منذ بداية دعوته - أذن
رسول الله ﷺ للمسلمين بالهجرة إلى هذا الوطن .

ولم يكن معنى الهجرة إلا إهدار المصالح، والتضحية بالأموال، والنجاة بالشخص
فحسب، مع الإشعار بأنه مستباح منهب، قد يهلك في أوائل الطريق أو نهايتها، وبأنه
يسير نحو مستقبل مبهم، لا يدري ما يتمخض عنه من قلاقل وأحزان .

وبدأ المسلمون يهاجرون، وهم يعرفون كل ذلك، وأخذ المشركون يحولون بينهم
وبين خروجهم، لما كانوا يحسون من الخطر، وهاك نماذج من ذلك :

١ - كان من أول المهاجرين أبو سلمة - هاجر قبل العقبة الكبرى بسنة على ما قاله
ابن إسحاق - وزوجته وابنه، فلما أجمع على الخروج قال له أصهاره: هذه نفسك غلبتنا
عليها، أرأيت صاحبتنا هذه؟ علام نتركك تسير بها في البلاد؟ فأخذوا منه زوجته .
وغضب آل أبي سلمة لرجلهم، فقالوا: لا نترك ابننا معها إذ نزعتموها من صاحبنا،
وتجاذبوا الغلام بينهم فخلعوا يده، وذهبوا به . وانطلق أبو سلمة وحده إلى المدينة،
وكانت أم سلمة بعد ذهاب زوجها، وضياح ابنها تخرج كل غداة بالأبطح تبكي حتى
تمسي، ومضى على ذلك نحو سنة، فرق لها أحد ذويها وقال: ألا تخرجون هذه المسكينة؟
فرقم بينها وبين زوجها وولدها فقالوا لها: الحقي بزوجك إن شئت، فاسترجعت ابنها
من عصبتها، وخرجت تريد المدينة - رحلة تبلغ خمسمائة كيلومتراً - وليس معها أحد من
خلق الله، حتى إذا كانت بالتنعم لقيها عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، وبعد أن عرف
حالتها شيعها حتى أقدمها إلى المدينة، فلما نظر إلى قباه قال: زوجك في هذه القرية
فادخليها على بركة الله، ثم انصرف راجعاً إلى مكة^(١).

٢ - ولما أراد صهيب الهجرة قال له كفار قريش: أتيتنا صعلوكاً حقيراً، فكثر مالك

(١) ابن هشام ١/٤٦٨، ٤٦٩، ٤٧٠ .

عندنا، وبلغت الذي بلغت، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك؟ والله لا يكون ذلك. فقال لهم صهيب: أرأيتم إن جعلت لكم مالي، أتخلون سبيلي؟ قالوا: نعم. قال: فإني قد جعلت لكم مالي، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: ربح صهيب، ربح صهيب (١).

٣ - وتواعد عمر بن الخطاب، وعياش بن أبي ربيعة، وهشام بن العاصي بن وائل موضعاً يصبحون عنده، ثم يهاجرون إلى المدينة، فاجتمع عمر وعياش وحبس عنهما هشام.

ولما قدما المدينة ونزلا بقباء قدم أبو جهل وأخوه الحارث إلى عياش - وأم الثلاثة واحدة - فقالا له: إن أمك قد نذرت أن لا يمس رأسها مشط، ولا تستظل بشمس حتى تراك، فرق لها. فقال له عمر: يا عياش، أنه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم، فوالله لو آذى أمك القمل لامشطت، ولو قد اشتد عليها حر مكة لاستظلت، فأبى عياش إلا الخروج معها؛ لير قسم أمه، فقال له عمر: أما إذ قد فعلت ما فعلت فخذ ناقتي هذه فإنها ناقة نجبية ذلول، فالزم ظهرها، فإن رابك من القوم ريب فانج عليها. فخرج عليها معها، حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال له أبو جهل: يا ابن أخي والله لقد استغلظت بعيري هذا، أفلا تعقبني على ناقتك هذه؟ قال: بلى فأناخ وأناخا ليتحول عليها، فلما استتوا بالأرض عدوا عليه فأوثقاه وربطاه، ثم دخلا به مكة نهاراً موثقاً، وقالوا: يا أهل مكة، هكذا فافعلوا بسفهائكم، كما فعلنا بسفيها هذا (٢).

هذه ثلاثة نماذج لما كان المشركون يفعلونه بمن يريد الهجرة إذا علموا ذلك. ولكن مع كل ذلك خرج الناس أرسالاً يتبع بعضهم بعض. وبعد شهرين وبضعة أيام من بيعة العقبة الكبرى لم يبق بمكة من المسلمين إلا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعلي - أقاما

(١) نفس المصدر ٤٧٧/١.

(٢) بقي هشام وعياش في قيد الكفار حتى إذا هاجر رسول الله ﷺ قال يوماً: من لي بعياش وهشام؟ فقال الوليد بن الوليد: أنا لك يا رسول الله بها، فقدم الوليد مكة مستخفياً، ولقي امرأة تحمل إليها طعاماً فتيها حتى عرف موضعها، وكانا محبوسين في بيت لا سقف له، فلما أمسى تسور الجدار، وقطع قيديها وحلها على بعيره حتى قدم المدينة انظر ابن هشام ٤٧٤/١، ٤٧٥، ٤٧٦، وكان قدوم عمر المدينة في عشرين من الصحابة (صحيح البخاري ٥٥٨/١).

بأمره لها - وإلا من احتبسه المشركون كرهاً. وقد أعد رسول الله ﷺ جهازه ينتظر متى يؤمر بالخروج، وأعد أبو بكر جهازه^(١).

روى البخاري عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ للمسلمين إني أريت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتین - وهما الخرتان - فهاجر من هاجر قبل المدينة. ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة، وتجهز أبو بكر قبل المدينة، فقال له رسول الله ﷺ على رسلك، فإني أرجو أن يؤذن لي. فقال له أبو بكر: وهل ترجو ذلك بأبي أنت؟ قال: نعم فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه، وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمر - وهو الخبط - أربعة أشهر^(٢).

(١) زاد المعاد ٥٢/٢.

(٢) صحيح البخاري، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه ٥٥٣/١.

في دار الندوة " برلمان قريش "

ولما رأى المشركون أصحاب رسول الله ﷺ قد تجهروا وخرجوا، وحملوا وساقوا الذراري والأطفال والأموال إلى الأوس والخزرج، وقعت فيهم ضجة أثارت القلاقل والأحزان، وأخذ القلق يساورهم بشكل لم يسبق له مثيل، فقد تجسد أمامهم الخطر الحقيقي العظيم، الذي يهدد كياناتهم الوثني والاقتصادي، فقد كانوا يعلمون ما في شخصية محمد ﷺ من غاية قوة التأثير مع كمال القيادة والإرشاد، وما في أصحابه من العزيمة والاستقامة والفداء في سبيله، ثم ما في قبائل الأوس والخزرج من قوة ومنعة، وما في عقلاء هاتين القبيلتين من عواطف السلم والصلاح، والتداعي إلى نبذ الأحقاد فيما بينها، بعد أن ذاقوا مرارة الحروب الأهلية طيلة أعوام من الدهر.

كما كانوا يعرفون ما للمدينة من الموقع الاستراتيجي بالنسبة إلى المحجة التجارية التي تمر بساحل البحر الأحمر من اليمن إلى الشام. وقد كان أهل مكة يتاجرون إلى الشام بقدر ربع مليون دينار ذهب سنوياً، سوى ما كان لأهل الطائف وغيرها. ومعلوم أن مدار هذه التجارة كان على استقرار الأمن في تلك الطريق.

فلا يخفى ما كان لقريش من الخطر البالغ في تمركز الدعوة الإسلامية في يثرب، ومجابهة أهلها ضدهم.

شعر المشركون بتفاقم الخطر الذي كان يهدد كياناتهم، فصاروا يبحثون عن أنجع الوسائل لدفع هذا الخطر، الذي مبعثه الوحيد هو حامل لواء دعوة الإسلام محمد ﷺ.

وفي يوم الخميس ٢٦ من شهر صفر سنة من النبوة، الموافق ١٢ من شهر سبتمبر سنة ٦٢٢م^(١) - أي بعد شهرين ونصف تقريباً من بيعة العقبة الكبرى - عقد برلمان مكة (دار الندوة) في أوائل النهار^(٢) أخطر اجتماع له في تاريخه، وتوافد إلى هذا

(١) أخذنا هذا التاريخ بعد مراجعة التحقيقات التي سجلها العلامة محمد سليمان المنصور فوري في رحمة للعالمين ٩٥/١، ٩٧، ١٠٢، ٤٧١/٢.

(٢) يدل على انعقاد الاجتماع في أوائل النهار ما رواه ابن إسحاق أن جبريل أخبر النبي ﷺ بمؤامرة هذا

الاجتماع جميع نواب القبائل القرشية، ليتدارسوا خطة حاسمة تكفل القضاء سريعاً على حامل لواء الدعوة الإسلامية، وتقطع تيار نورها عن الوجود نهائياً.
وكانت الوجوه البارزة في هذا الاجتماع الخطير من نواب قبائل قريش:

- ١ - أبو جهل بن هشام، عن قبيلة بني مخزوم.
- ٢ - جبير بن مطعم، وطعيمة بن عدي، والحارث بن عامر، عن بني نوفل بن عبد مناف.
- ٣ - شيبه وعتبة ابنا ربيعة وأبو سفيان بن حرب، عن بني عبد شمس بن عبد مناف.
- ٤ - النضر بن الحارث (وهو الذي كان ألقى على رسول الله ﷺ سلا جزور) عن بني عبد الدار.
- ٥ - أبو البختری بن هشام، وزمعة بن الأسود، وحكيم بن حزام عن بني أسد بن عبد العزی.
- ٦ - نبيه ومنبه ابنا الحجاج، عن بني سهم.
- ٧ - أمية بن خلف، عن بني جمح.

ولما جاءوا إلى دار الندوة حسب الميعاد اعترضهم إبليس في هيئة شيخ جليل، عليه بتلة، ووقف على الباب، فقالوا: من الشيخ؟ قال: شيخ من أهل نجد سمع بالذي اتعدتم له، فحضر معكم لیسع ما تقولون، وعسى أن لا یعدمکم منه رأياً ونصحاً. قالوا: أجل، فادخل، فدخل معهم.

النقاش البرلmani والإجماع على قرار غانم بقتل النبي ﷺ:

وبعد أن تكامل الاجتماع بدأ عرض الاقتراحات والحلول، ودار النقاش طويلاً. قال أبو الأسود: نخرجه من بين أظهرنا وننفيه من بلادنا، ولا نبالي أين ذهب، ولا حيث وقع، فقد أصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت.

قال الشيخ النجدي: لا والله ما هذا لكم برأي، ألم تروا حسن حديثه، وحلاوة منطقه، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به؟ والله لو فعلتم ذلك ما أمنت أن يحل على

= الاجتماع وأذن في الهجرة. ثم ما رواه البخاري من حديث عائشة أن النبي ﷺ جاء أبا بكر لي نحر الظهيرة وقال له: «قد أذن في الخروج» وسيأتي.

حي من العرب، ثم يسير بهم إليكم - بعد أن يتبعوه - حتى يطأكم بهم في بلادكم، ثم يفعل بكم ما أراد، ويروا فيه رأياً غير هذا.

قال أبو البختری: احبسوه في الحديد، وأغلقوا عليه باباً، ثم تربصوا به ما أصاب أمثاله من الشعراء الذين كانوا قبله - زهيراً والنابعة - ومن مضى منهم من هذا الموت، حتى يصيبه ما أصابهم.

قال الشيخ النجدي: لا والله ما هذا لكم برأي، والله لئن حبستموه - كما تقولون - ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه، فلأوشكوا أن يشوا عليكم، فينزعوهم من أيديكم، ثم يكاثروكم به. حتى يغلبوا على أمركم. ما هذا لكم برأي، فانظروا في غيره.

وبعد أن رفض البرلمان هذين الاقتراحين قدم إليه اقتراح آثم وافق عليه جميع أعضائه، تقدم به كبير مجرمي مكة أبو جهل بن هشام. قال أبو جهل: «والله إن لي فيه رأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد، قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟ قال: أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتي شاباً جليداً نسيباً وسيطاً فينا، ثم نعطي كل فتي منهم سيفاً صارماً، ثم يعمدوا إليه، فيضربوه بها ضربة رجل واحد، فيقتلوه، فنستريح منه، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعاً، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً، فرضوا منا بالعقل، فعقلناه لهم.

قال الشيخ النجدي: القول ما قال الرجل، هذا الرأي الذي لا أرى غيره. ووافق برلمان مكة على هذا الاقتراح الآثم بالإجماع، ورجع النواب إلى بيوتهم، وقد صمموا على تنفيذ هذا القرار فوراً^(١).

(١) انظر ابن هشام ١/٤٨٠، ٤٨١، ٤٨٢.